وأي جُحر سوى الوحدة يمكن أن يكون في مشهد المتنسّكين المنبسِط؟ وسرعان ما تعلّم «ماني» أن يفوز بها ويتعهّدها ويَحْمِيَها من الجميع. وأقام لنفسه بعيداً عن الجماعة فضاءً عُزلة، مملكةَ طفل لا تطأها قدمُ رَجُل قطّ. وكان يهرع إليه ما إن يتسنّى له ذلك. وكان ذلك في مكان تتلوّى فيه ترعة «دجلة» وسط دغل من النخيل المنتصب بعضه لِصق بعض مرصوصاً بشكل نصف قمر، المنحني بعضه الآخر فوق الماء وكأنه يشرب. وكان ينبغي التجرّؤ على تخطّيه ليجد المرء نفسَه في شبه جزيرة من العَبَق والظلّ، ولكنه ظِلٌّ لا يطرد النور بل يمتصّه على العكس من ذلك ويُرشّحه ويُقطّره ليُغدِقه على أولئك الذين يُحْسِنون جناه. وهناك كان «ماني» يجلس أو يستلقي، يبكي أو يتهلّل أو يحلم. وكثيراً ما كان يناجي نفسه بصوت جهير غير هيّاب من افتضاح سرّه.

غير أن هذه اللحظات كانت نادرة، فلم يكن الزمان طليقاً قطّ في بستان النخيل. فقد كان العيش يتمّ فيه على الدوام بين شعيرتيْن، بين عمليْن من أعمال السُّخْرة. وكان على «ماني» أن ينتزع نفسه باستمرار من ملاذه للاختلاط على مضض بجمهور «أصحاب الملابس البيضاء» الذي لا يُعرف له شكل.

ولم يعرف أيّ واحد من هؤلاء الناس الذين يسمّون أنفسهم «إخوة» أن يكون صديقاً. وقد ظلّوا طوال ثمانية أعوام في عَيْنَي الطفل المذعورتيْن سجّانين غامضين يلبسون ملابس غير بهيجة ويتفوّهون بكلمات فظّة. وإذا كان «ماني» يحاكي طقوسهم في ورع حتى ليبدو مماثلاً لهم فذلك لأنه قد ذاق العقوبات التي كان «سيتايي» يُنْزِلها بالكبار والصغار على السواء عند أقلّ تقاعس: صوم إجباري، جَلْد، نقل ماء ببراميل كبيرة طافحة، صلوات تكفير لا تنتهي.

ولم تكن العقوبة في بعض الأحيان ممّا هو مألوف كثيراً، وكانت عندئذٍ مناسبة للابتسام أو للضحك ذات شأن عظيم لدى «الإخوة»، مثلما حُكم على «سمعان» العجوز، وقد أذنب بكيل شتائم داعرة، بتسلّق نخلة والتشبّث بها بانتظار ترخيص «سيتايي» له بالنزول.

إلّا أن أكثر الضحايا مواظبة على هذا العِقاب الفكِه ظلّ «مالكوس»، وهو